

احتواء او انفصال؟

هذا المقال يحتوي على قضايا في كندا ولاكن الاسئلة المطروحة قد تنطبق على كل الدول الاخرى التي لديها مجتمعات كبيرة من المهاجرين.

انني استمتع دائما بقراءة مجلة *سبايسينج*¹ تلك المجلة التي كرست اعمالها الى النطاق المدني واسع المدى لمدينة تورونتو. وتتميز تلك المقالات بتنوعها وايجادة كتابتها كما تمتاز صورها ورسوماتها وتقدم سياساتها ومن مبادئها الاساسية التحفيز على ركوب الدرجات ورياضة المشي ومحاربتها للشركات التي تستغل الاماكن العامة.

هذه القيم والاهتمامات تؤخذ في اعتباري دائما الا ذلك المقال (*بليس ميكرز*²) وعنوانه "خلق شعور الانتماء" والذي يعبر فيه شخص مؤيد ومنظم للحقوق الاجتماعية شتى والذي حصل على زمالة العدالة الاجتماعية من مؤسسة في تورونتو. كما انني لا اود ان اشير الى شخص بعينه على الرغم ان ذلك الشخص يتمتع بجودة العمل واخلاص الضمير ولايمانه بخدمة المجتمع وتحت اي ظرف افكاره منتشرة وما يثير القلق بداخلي ان تلك الافكار مقبولة من كافة افراد المجتمع دون اي اسئلة.

والهدف من المقال هو ان تشعر المجتمعات الكندية المختلفة بالوحدة الاجتماعية والهدف الاخر يقوم بتشبيه الاندماج الناجح وذلك ليس بالمقاعد المنزلة في التيتانك ولكن ببناء سفينة جديدة.

لتوضيح تلك الافكار تقوم الكاتبة بالكتابة عن لقاء افراد المجتمع تكلم فيه متكلم بنجابي فقال ان استخدام الحديقة المحلية محدد له ولاصدقائه في الاوقات المسائية بفصل الصيف لان الحمامات العامة والتي هي في المكتبة المجاورة للحديقة تغلق في الساعة الخامسة مساء. ولقد اقترحت الكاتبة ان يعلموا المختصة بشؤون البلدية المحلية والتي حضرت للقاء ايضا. فلقد قامت الكاتبة بنقل رأي المتكلم البنجابي الى المسئلة المحلية فوعدت ان تنظر الى المشكلة.

من خلال كلام الكاتبة فكانت هذه لحظة تمكين لصاحب المشكلة وخاصة انه اكتشف حقيقة المقولة: "ما تقوله وما تفعله قد يسبب تاثيرا ايجابيا" غرم ضعف استخدامه للغة الانجليزية. والفكرة الاشمل التي انتهت اليها الكاتبة هي ان ذلك الموقف يلقي الضوء على الجانب السلبي للتعددية والتنوع داخل المجتمع. "وذلك ليس ان الافراد لا يتعاملون مع بعضهم البعض لحل مشاكلهم ولكنه في رأي الكاتبة عدم تواجد المسؤولين عند ذلك." وهي تقول ان الاماكن التي تتحدث فيها المجتمعات المهاجرة

¹ Spacing

² Place Makers

عن السياية هي المساجد والمراكز الاجتماعية والحدائق ومنازلهم الخاصة. وبالإضافة الى ذلك تقول عن المسؤلة السياسية المحلية التي حضرت المجتمع بعينه انها "تتمتع بشخصية جيدة ولكن ما فائدة ذلك حيث انها لا تفهم ناخبها؟" وتقترح الكاتبة انه "بدلا من نشأ بنائات اجتماعية وسياسية كي يشترك فيها افراد المجتمع نقوم باعمال جادة وفعالة لكي نعرف اهتمامات المجتمع وان نستمتع اليهم اي كانت لغتهم. كما انني اعلم انه صعب للغاية ولكنه نتيجة لا مفر منها بسبب التعددية الغير منتظمة." كما انها تقول ان "هذه الطرق سوف تقوم ببناء مجتمع حيث انا واطفالي والمهاجرين واللجئين والذين هم على الهوامش والجنسيات الملونة الاخرى يستطيعون ان يشعروا بالانتماء.

ان تردد الفرد على ان يقول شئ سلبيا عن لحظة السعادة التي مر بها صاحب البنجابي كما تصفه الكاتبة. وبعد كل ذلك الكثير منا قد اكتسبوا خبرة البعث عن الحمامات العامة وذلك لاولويتها. وعند توافر الحمامات العامة سيشعر الجميع بالارتياح.

هل يعني التمكن الحقوقي ان يتحدث الفرد للسياسي عن الحمامات المغلقة وان ياخذ وعودا بفعل شئ عن تلك المشكلة؟

واي نوع من التعددية تريد الكاتبة وامثالها من المؤيدين؟ وتحتوي تورنتو على ثلاثة ملايين نسمة يتكلمون اكثر من مائة لغة ويقدم الموقع الرسمي للمدينة معلومات بمئة واربعين لغة مختلفة. وهل تحوم الجدية للمسؤولين بزيارة الالاف من المساجد والكنائس والمعابد اليهودية وغيرها وفوق ذلك الحدائق والمنازل كي يستمعوا الى ما يقوله المواطنون في لغاتهم التي يتكلمونها؟

وان تلك الفكرة تبدو سخيفة حتى ان مقترحيها لا يؤمنون بها. والسيناريو الحقيقي الذي يدور في ادماغهم هو تلك القصة نفسها التي ذكرتها الكاتبة عن قائد اجتماعي يتحدث اللغة الانجليزية بطلاقة اختير (اي فرض نفسه) كمتحدث باسم المجتمع ذاهبا الى السياسيين ليخبرهم بمطالب المواطنين على الرغم من ان ما يخبرهم هو ما يدور فقط بعقله. والتمكين الحقيقي الذي يحدث هنا هو تمكين الناشطين الاجتماعيين وليس تمكين المواطنين حيث ان هؤلاء الناشطين يحصلون على مناصب كنائبيين اجتماعيين او اعمال مدفوعة الاجر في الوكالات الاجتماعية التي تعتمد على التمويل العام.

وانني لا اقلل من قيمة الخدمات التي تقدمها الوكالات الاجتماعية ولا ادني من مجهودات واخلاص العاملين بها ولكنني بالتاكيد اشك في هذا النوع من التمكين. وكيف يحصل الناس على التمكين حيث انهم لا يتكلمون لغة المجتمع الذي يقيمون فيه. فالانجليزية هي اللغة الاساسية في كندا فهي لغة السلطة ولغة السياسة ولغة رجال الاعمال والعمل ووسائل الاعلام والتعليم العالي. وكيف يمكن التحدث عن

التمكين والتضامن وخلق شعور الانتماء في حين ان فكرة اللغة ليس ضرورية لبناء مجتمع على الرغم من تلك الفكرة لا تؤدي الى التضامن والانتماء بل الى التبعاد والانفصال.

وللتوضيح: من الافضل ان تقدم لهؤلاء الافراد الذين لا يتكلمون الانجليزية خدمات في لغتهم ومما يدعو للسرور ان الموقع الالكتروني للمدينة يحتوي على معلومات بمائة واربعين لغة وانني اتمتع بالاقامة في مدينة يعيشوا فيها الناس بخلاف اجناسهم جنبا بجنب.

و اعتقد ان القادة الاجتماعيين يسببون ضرر اكثر من منفع برؤيتهم للمجتمعات المنفصلة الذين يتحدثون لغات مختلفة ولا يتحدثون مع السلطات الا عن طريق المتارجمين. وما يريده القادة ليس التعددية ولكن الانفصال الدائم.

ومع احتمالية تواجد النية الحسنة بتشجيع الافراد على الترابط السياسي والاجتماعي بين داخل مجتمعاتهم فقط. وما يلفت الانظار ان اصحاب تلك الفكرة لا يقومون بتطبيقها ولقد تعلمون الانجليزية ولا ينتظرون السياسيين كي يستمعون اليهم في مجتمعاتهم بل يذهبون الى الاماكن حيث النشاطات ويقومون بطرح افكارهم باللانجليزية.

الحقيقة هي ان فكرة مجتمع يحتوي على مجموعات تتكون على اساس الاصل او اللغة او الدين لا تؤدي الى التمكين بل عكسه. ومن مفاهيم تلك الفكرة ان "التغيير الايجابي" يعني الضغط على السلطات للحصول على المزيد من الخدمات لمجموعة معينة دون باقي مجموعات المجتمع. وعندما نأخذ تلك الفكرة في الاعتبار نرى انها في الحقيقة فكرة محددة ومحافضة ومدنية لمعنى الوطنية.

التغيير والتمكين الحقيقي لا ياتي الا نتيجة التعاون بين الناس بصرف النظر عن الاصل او الدين فعلى سبيل المثال الاجور القليلة وظروف العمل السيئة تجعل المهاجرين انفسهم (وعمال كندا بشكل عام) يشعرون بالوحدة. وان حركة العمال وهي عبارة عن حركة تسعى الى تحسين ظروف العمال العملية والاجتماعية قد نجحت الى حد ما في تحقيق ذلك عن طريق ان اتحادات العمال المختلفة استطاعت خلق شعور الوحدة بين العمال بغض النظر عن اصلهم. وعلى الجانب الاخر قد استعمل اصحاب الاعمال دائما سياسة فرق تسود ناشئين عداوة بين العمال على اساس اختلاف الاصل او اللغة او الدين. فمن سيفهم معاناة العامل بشكل اكثر - صاحب العمل الذي من نفس الاصل او الدين او العمال الاخرون الذين اصلهم مختلف ولكنهم يتعرضوا الى نفس الاستغلال؟

لا بد من اخذ الامور الاخرى في الاعتبار. فتقوم الحكومة الكندية وقائدها هاربر باعاقبة النشاطات البيئية لظاهرة الاحتباس الحراري وازدياد خصخصة الخدمات الحكومية واخذ اجراءات تؤيد العولمة نحو الجانب الاقتصادي ودعم ادارة بوش بدون شروط في مجالات الشؤون الدولية.

وبالنظر الى ذلك الوضع السياسي الموجود في كندا هل نود ان نوافق على الفكرة ان المجتمعات الاصولية لا يهتمون بتلك الامور السياسية والاجتماعية وانهم لا يلعبون دورا فيها؟ هل نستطيع الاعتماد على السياسيين وحضورهم للاجتماعات المحلية واستماعهم الى الهموم المعبر عنها هناك واخذهم "النظر في القضية"؟

دعنا نتكلم بجدية اكثر: متى "استمع" اصحاب القوى وهم مديري الشركات والسياسيون الى ما هو ضد مصالحهم وايدولوجيتهم؟ متى تنازل اصحاب القوى عن مواضعهم الا عندما يواجهون حركات اجتماعية معارضة تهاجمهم بطريقة مباشرة و قوية؟

انا نفسي اتكلم كمهاجر وليست الانجليزية لغتي الاولى ولا بد ان اقول بكل صراحة ان صورة المهاجرين التي ترسمها الكاتبة في مقالها تجعلني اشعر بالاهانة لانها تشير الى ان المهاجرين لا يهتمون الا بما يؤثر في افراد جالياتهم حتى ان كانت المشكلة لا تستدعو الى حلول سياسية. وبلاضافة الى ذلك اتكلم كاعلماني لا اتبع ديننا فالفكرة انه من الافضل ان تركز النشاطات السياسية في مجتمع علماني مثل كندا حول الكنائس والمساجد والمعابد تجعلني اشعر بالقلق ايضا. وفوق كل ذلك اتكلم كاشتراكي واسعى الى انتهاء النظام الراسمالي فلا تعجبني الفكرة ان التمكين هو ان تنظر سياسية محلية في قضية فتح الحمامات العامة لمدة ساعة اضافية.

وفي رأيي ان هناك حاجة الى رؤية مجتمع يسعى الى توحد الناس من اجل التغيير الاجتماعي الحقيقي وليس الى تقسيم الناس الى فئات منفردة. وهذا ما اقصده بالقول: ان الاندماج الناجح يعتمد على ترك المقاعد المنزلة في التيتانك وبناء سفينة جديدة.

يولي ديمر

١٠ / اغسطس ٢٠٠٨

ترجم من الانجليزية للعربية بواسطة مريم الليموني